افتتاح إفريقيـــــة

وكيف غزاها الاستعمار الاوربي

بقلم مؤرخ كبير

تتمـــــة

لم يبق اليوم فى إفريقية من الأمم المستقلة سوى الحبشـة ، وجمهورية ليبيريا ؛ ولـكن ليبـيريا ليست فى الواقع سوى منطقة للنفوذ الأمريكى ، وقد أنشأها الزنوج الأمريكيون الأحرار ؛ ومع أنها جمهورية مستقلة وعضو فى عصبة الأمم ، فان السياسة الأمريكية هى التى تشرف على شؤونها العليا ؛ وعلى هذا فليس فى إفريقية اليوم أمة تتمتع باستقلالها الصحيح سوى أمبراطورية الحبشة ؛ وهى تتمتع بهذا الاستقلال منذ فجر التاريخ . وقد حاول الاستعمار الأوربى غير مرة أن يحطم استقلالها ، ولـكنها استطاعت أن تسحق مشروعاته ومحاولاته ؛ والآن يعيد التاريخ دورته ويتربص الاستعمار الأوربى بالحبشة مرة أخرى ، ويحشد كل قواه وعدده المدمرة ، ويطالب علناً بافتراسها والقضاء على استقلالها تحقيقاً لشهوة الفتح والتوسع ؛ وها نحن أولاء نشهد العاصـفة وقد انقضت ، فهل تستطيع مملـكة سبأ الخالدة أن ترد عنها عادية هذا الغزو البيِّت ؟ وهل تستطيع الفوز بهذا الاستقلال الذى حافظت عليه منـذ الأحقاب ؟ وهل تبقى الحبشة آخر حصن للاستقلال الافريقى ، أم تسقط صريعة الاعتداء ، فيجهز الاستعمار بذلك على آخر ملاذ لهذا الاستقلال ؟ هذا ما سيكشف عنه المستقبل القريب

وقد رأينا فيما تقدم كيف اقتسمت الدول الأوربية إفريقية فيما بينها ، واستقرت كل منهـا فى بعض مناطقها وأراضيها ، وأنشأت الدول الـكبرى — انكلترا وفرنسا وألمانيا — كل منها فى إفريقيـة امبراطورية استعمارية شاسعة . وكانت إيطاليا إحدى الدول التى شاركت فى افتتاح إفريقية ، غير أنها خرجت منها بصفقة يسيرة . ويرجع ذلك إلى أنها كانت فى أواخر القرن الماضى ، حين بدأ افتتاح إفريقية ، ما تزال دولة ثانوية ، حديثة عهد باستقلالها ووحدتها القومية ؛ هـذا إلى أنها لقيت خلال غزواتها الاستعمارية نكبة لم تلقها أية دولة أوربيـة ، إذ هزمت جيوشها وسحقت فى موقعة « عدوة » الشهيرة حسبما نفصل بعد ، فوضعت هذه الهزيمة الساحقة حداً لمشاريعها الاستعمارية مدى حين

بدأت إيطاليا محاولاتها الاستعمارية فى سـنة ١٨٨٢ ، إذ أرسلت إلى بلاد أرتريا حملة احتلت خليج عصب وما يليه جنوباً ؛ واحتلت ثغر مصوع وما يليه من الساحل شمالاً (سنة ١٨٨٥) ؛ وأرسلت حملة أخرى إلى بلاد الصومال مما يلى المحيط الهندى ، فاحتلت شقة ضيقة طويلة على الساحل ، من نهر جوبا حتى رأس جردفوى ، وهى التى تعرف اليوم بالصومال الايطالى (سنة ١٨٨٨) . وكانت إيطاليا يومئذ دولة ناشئة فتية تجيش بآمال كبيرة ، وكان وزيرها الشهير (كرسبى) روح هذه المغامرات الاستعمارية ؛ وكان يحلم بانشاء امبراطورية استعمارية إيطالية ضخمة فى شرق إفريقية تضم الحبشة ، وتصل ما بين الأرتريا والصومال ؛ وكان تفاهم الدول الأوربية على اقتسام افريقيـة يخول لأيطاليا حرية العمل فى تلك المنطقة . فلما تم احتلال الأرتريا والصومال ، اعتقد كرسبى أن الفرصة قد سنحت لغزو الحبشة ، والعمل لانشاء الامبراطورية الاستعمارية التى يتوق إلى إنشائها

وكانت الحبشة منذ منتصف القرن التاسع عشر تجوز فترة من الضعف والتفرق ؛ وكان ملـكها يومئذ الأمبراطور تيودور ، وهو أمير من أمهرا يدعى كاساى ، اغتصب العرش من الرأس (على) ملك الحبشة المسلم ، وأقام نفسه امبراطوراً ، وبسط على الحبشة حكمه المطلق ، وأثار بشـدته وعنفه فى معاملة الأجانب سخط الدول الأوربيـة ، وقبض على عدد من الرسلين والنزلاء الانـكليز وأبى أن يطلق سراحهم ، فجهزت انـكلترا حملة لغزو الحبشة بقيادة السير نابيير ؛ ونفذت هـذه الحملة إلى الحبشة فى سنة ١٨٦٨ ، وهزمت جيش الأمبراطور ، فاضطر تيودور أن يطلب الصلح ، ثم انتحر يأساً وغماً ؛ وانسحب الانـكليز ، وعادت الحرب الأهلية فى الحبشة ، واستولى على العرش كاساى أمير تجرى ، ونصب نفسه أمبراطوراً باسم يوحنا الثانى ؛ ولبثت الحبشة فى حالة اضطراب وفوضى ؛ واحتل الايطاليون فى تلك الفترة ساحل أرتريا والصومال ؛ وكانت الجيوش المصرية قد نفذت قبل ذلك بأعوام إلى بعض مناطق الحبشة مما يلى السودان

فاستطاع الأمبراطور يوحنا أن يوقع بها هزيمة قادحة وأن يرغمها على الجلاء عن الحبشة (سنة ١٨٧٦)، ولما توفى يوحنا سنة ١٨٨٩ خلفه على العرش منليك أميرشوا، باسم الأمبراطور منليك الثانى. وبدأ منليك حكمه فى ظروف صعبة؛ وكانت إيطاليا قد استطاعت أن تتقرب إلى الحبشة، وأن تبسط عليها نفوذها شيئاً فشيئاً تحت ستار المعاونات والصلات الودية، وما زالت حتى استطاعت بسياسة الضغط والوعيد أن تحمل منليك على أن يعقد معها معاهدة حماية مقنعة هى التى تعرف بمعاهدة أوشالى (مايو سنة ١٨٨٩)، وبها وضعت الحبشة تحت نوع من الوصاية الايطالية؛ وحاولت إيطاليا خلال الأعوام التالية أن تتدخل فى شؤون الحبشة تدخلاً قوياً، وأن تفرض عليها إرادتها، واستطاعت أن تحتل بعض أنحائها المجاورة لأرتريه، ولكن الشعب الحبشى لم يلبث أن ثار لهذا الاعتداء على أرضه وحريته؛ وقاد منليك هذه الثورة الوطنية، فجردت عليه إيطاليا جيشاً ضخما قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادة الجنرال باراتيرى؛ ولكن الوطنية الحبشية غمرت كل شىء وسحقت الجيوش الايطالية فى موقعة عدوة الشهيرة من أعمال ولاية تجرى (٢ مارس سنة ١٨٩٦)، ولم تبق منها سوى فلول ممزقة، وحطمت آمال إيطاليا ومشاريعها الاستعمارية، وأرغمت على الاعتراف باستقلال الحبشة؛ واستمر منليك الثانى أو منليك الأكبر محرر الحبشة أعواماً طويلة يقودها فى سبيل الاصلاح والتقدم؛ وفى عهده نظمت الحبشة علاقتها مع الدول الأوربية، واستطاعت أن ترغمها جميعاً على احترام استقلالها. وفى سنة ١٩٠٦ عقد تحالف ثلاثى بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا يقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى تلك المنطقة، وينص على وحدة الحبشة واستقلالها، وينص أيضاً على تفوق المصالح الايطالية فى الحبشة. ولما توفى منليك الأكبر سنة ١٩١٣ خلفه حفيده «ليجى ياسو» بعهد منه؛ ولكن عوامل التفرق عادت تعمل عملها، واضطرمت الحرب الأهلية مرة أخرى، وعزل «ليجى ياسو» بعد خطوب وحوادث جمة، وتولت العرش «زوديتو» كبرى بنات منليك، وعين الرأس تفرى وصياً للعرش وولياً للعهد، فاستأثر بكل سلطة حقيقية، ولم تمض أعوام قلائل حتى أعلن نفسه أمبراطوراً إلى جانب «زوديتو»، ولما توفيت الأمبراطورة سنة ١٩٣٠، انفرد بالملك وتلقب باسم «هيلا سلاسى»، وفى عهده قطعت الحبشة مراحل كبيرة فى سبيل التقدم والاتحاد الوطنى، والتحقت بعصبة الأمم (سنة ١٩٢٣)، وزار الأمبراطور إيطاليا سنة ١٩٢٥ فاستقبل فى رومة بحفاوة كبيرة، وعقدت على أثر ذلك بين البلدين معاهدة صداقة وتحكيم واعتقدت الحبشة أنها فى ظل عصبة الأمم، وظل الصداقة الايطالية الجديدة، قد أمنت مطامع الاستعمار ومشاريعه الغادرة

* * *

وكانت إيطاليا منذ نكبة «عدوة» قد وجهت مطامعها الاستعمارية شطراً آخر. وكانت طرابلس، هى المنطقة الوحيدة التى بقيت من شمال إفريقية بعيدة عن الاحتلال الأوربى؛ وطرابلس تواجه إيطاليا فى الضفة الأخرى من البحر، وفيها مناطق منبسطة شاسعة تصلح للحرث والاستعمار؛ ومنذ فاتحة هذا القرن تعمل إيطاليا لانتزاع طرابلس من قبضة تركيا الضعيفة، ولم تلق إيطاليا اعتراضاً من انكلترا أو فرنسا إذ كانتا تؤثران أن تحل فى طرابلس دولة ثانوية مثل إيطاليا وتخشيان أن تحتلها منافستها القوية ألمانيا. وهكذا استطاعت إيطاليا بموافقة انكلترا وفرنسا أن تعد عدتها لاحتلال طرابلس. وفى أواخر سنة ١٩١١ وجهت إيطاليا إلى تركيا بلاغاً نهائياً تزعم فيه أن مصالحها فى طرابلس قد عبث بها، وأتبعت ذلك فى الحال باحتلال ثغرى طرابلس وبنغازى، وتركت تركيا كعادتها طرابلس لمصيرها، ولم يتقدم للدفاع عنها سوى حاميتها الصغيرة؛ ولكن ذمرة من الضباط البواسل بين ترك ومصريين استطاعوا أن يحشدوا رجال القبائل لقتال العدو الغير، واستطالت الحرب الطرابلسية زهاء عام (حتى أكتوبر سنة ١٩١٢) وانتصر الايطاليون فى النهاية وعقدوا الصلح مع تركيا، واعترفت تركيا بالحماية الايطالية على طرابلس. ولكن إيطاليا اشترت ظفرها غالياً بالمال والرجال، ولم تتقدم مع ذلك كثيراً داخل طرابلس، لأن رجال القبائل واصلوا الدفاع عن وطنهم، واستمرت إيطاليا تعانى أشد المتاعب فى طرابلس مدى أعوام طويلة. ولم توفق إلى إخماد القبائل إلا منذ سنة ١٩٢٥، إذ جردت عليها قوى جرارة. واستعانت

بأشنع وسائل الفتك الحديثة ، ومع ذلك فانها تقيم فى طرابلس على بركان من الحفيظة والبغض قد ينفجر لأول فرصة

ومنـذ قيام الطغيان الفاشـتى فى إيطاليا ، تضطرم إيطاليا الفاشـستية بآمال وأطماع جديدة ، وتساورها حمى التوسع والفكرة الامبراطورية . وكانت إيطاليا قد حصلت منذ سنة ١٩١٥ بمقتضى معاهدة لندن السرية على وعود من فرنسا وانـكلترا بأن تعوض عنـد دخولها فى الحرب بمنح استعمارية فى إفريقية ، ولـكن الحلفاء نـكثوا وعودهم فى مؤتمر الصلح ، واكتفوا بما استولت عليه إيطاليا فى أوربا من تراث النمسا . ولـكن إيطاليا الفاشستية شددت فى طلب الوفاء بالعهود المقطوعة ، واستطاعت أن تحصل على مزايا استعمارية جديدة فى افريقيـة ، مثل استيلائها على واحة جغبوب المصرية وواحة الدوينات السودانية بفضل نفوذ انكلترا ، واستيلائها على منطقـة شاسعة من السودان الفرنسى بمقتضى المعاهدة الفرنسية الايطالية الأخيرة . ولما اعتقد موسوليني أنه سما بإيطاليا وقواها العسكرية والمعنوية إلى أرفع مكانة ، اتجه بأنظاره إلى الحبشة ، ورأى أنه ينزوها واحتـلالها يمحو وصمة الماضى المؤلم ، ويحقق حلم إيطاليا المحطم فى انشاء امبراطورية استعمارية كبيرة تشمل الأرتيرية والصومال والحبشة . وها نحن أولاء نشهد منذ أشهر قوى الفاشستية تتدفق بواسطة قناة السويس إلى شرق إفريقية ، وها هى تغزو أراضى الحبشة ؛ وهكذا يزمع الاستعمار الأوربى أن ينقض على آخر وحدة مستقلة فى إفريقية ليفترسها كما افترس سائر أخواتها من قبل ، وليعم الاستعباد جميع أرجاء القارة السمراء

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن مصاير هذه الحرب الاستعمارية الجديدة ، فان فى الحبشة شعباً باسلا استطاع منذ فجر التاريخ أن يذود عن حرياته واستقلاله ، واستطاع حتى فى العصر الحديث أن يلقى على أولئك الذين يتربصون به اليوم درساً عميق الأثر ، ولـكنا نلاحظ بهذه المناسبة أن إيطاليا الفاشستية تذهب بعيداً فى أحلامها القيصرية . أجـل إن موسوليني يتشح اليوم بثياب قيصر ، ويفكر على طريقة الدولة الرومانية ، ويتصور أنه يستطيع بما اكتمل له من الاستعداد الحربى أن يخلق دولة القياصرة من جـديد ، وأن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأن يرد مصر — بعد الاستيلاء على الحبشة — إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية الجديدة ؛ ولـكن موسوليني ليس بقيصر ، وليست إيطاليا الفاشستية بالدولة الرومانيـة ، وهيهات أن يسمح العالم الحديث لهذه الفاشستية المحمومة بأن تضع لمحة من أحلامها العريضة موضع التنفيذ . ولقد كانت إيطاليا منذ جيلين فقط أمة مستعبدة ممزقة تجاهد لاستقلالها ووحدتها ، ولـكنها اليوم ، وهى حديثة عهـد بنعمة الاستقلال ، لا ترى بأساً من أن تجني على استقلال شعب حر باسل ، لأنها فقط تحلم بافتتاحه واغتيال أرزاقه ؛ ولـكنا نحن الذين لا يؤمنون بعظمة الفاشـستية ، ولا بخلالها ووسائلها الثيرة ، نتوقع أن تكون هذه المغامرة الذميمة — وقد اجترأت الفاشستية على تنفيذ مشروعها — قبر الفاشـستية وقبر مطامعها وأحلامها الدموية الأثيمة

« تم البحث »

(***)

لجنة التأليف والترجمة والنشر

صدرت الطبعة السادسة من كتاب :

تاريخ الأدب العربى

فى جميع عصوره

بقلم الأستاذ

احمد حسن الزيات

وهذه الطبعة تقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط ، وتكاد — لما طرأ عليها من الزيادة والتنقيح — تكون مؤلفاً جديدا تقرأ منها نموذجاً فى هذا العدد والأعداد التالية